الألم

ليس من غرضي ان اتكلم على الألم من وجهتهِ الفسيولوجية فحسب القراء ما نشرهُ المقتطف الى الآن ولا ان اهيم مع الشعراء في اودية خيالاتهم واحلامهم فما انا بشاعر مثلهم ولكن هي خطرات خطرت على الفكر اثارها ما يثير الحسرات والعبرات . وهي بنات ساعة خرجت فيها من تعاليمي التي ورثتها عن الاباء والاجداد . فليعذرني القارئ اذا وجد شيئاً كثيراً يتنافر مع افكارهِ ومعتقداتهِ

كل حي — راقٍ او دنيء — محاط باخطار تهدد كيانهُ وحياتهُ من ساعة يولد الى ساعة يموت . وقد اتتهُ الطبيعة من العدة — بحسب مرتبتهِ من الاحياء — ما يقاوم بها تلك الاخطار وبقي نفسهُ منها واوجدت فيهِ تلك الغريزة العامة التي تشمل كل ما فيها وهي غريزة حب البقاء حتى تضمن لعالم الاحياء عدم الفناء

ولكن تلك الاخطار قد لا تُحَسّ بالحواس المعروفة واذا أُحس بها فقد لا يدرك موضع الخطر منها . ولهذا نشأت في الحي حاسة خاصة لذلك ترقت معهُ وخضعت للنواميس التي تخضع لها . تلك هي حاسة الألم التي تنبههُ الى الخطر لاول مسهِ اياهُ وتدلهُ على موضعهِ من جسمهِ ومصدرهِ من البيئة وتهيج أعصابهُ تهييجاً شديداً — اشد بكثير من تهييج الحواس الاخرى — حتى لا يستطيع ان يصبر على الخطر فيودي بحياتهِ وهي لهُ كل شيء

فالألم للكائن الحي نذير الخطر ودليل الخلل في جسمهِ ولولاهُ ما استطاعت غريزة حب البقاء ان تقاوم عوامل الفناء . ولولاهُ لفعلت الادواء في الجسم فعلها قبل ان ينتبه العقل اليها ويقوم لمقاومتها . فألم لدغ العقرب نذير سريان سمها في جسمهِ . وألم الصدر دليل المرض الذي ينهش في الرئتين . وألم الحرق تنبيه لما تعملهُ الحرارة في تخريب انسجة عضو من الاعضاء . والآلام النفسية علامة خلل في الاجتماع وهكذا غيرهذه من كل انواع الألم العضوية والنفسية نذير ما يقابل كلاً منها من الاخطار التي تعمل في خراب الجسم الحي وخراب الاجتماع الحي

فالألم ضرورة أوجدتها الطبيعة لخير العالم ووظيفة من وظائف الجسم الحي بها يحفظ حياتهُ ووقوفها عن العمل نقص في الجسم وخطر جسيم عليهِ يهدد حياتهُ وكل ما يوقف تلك الوظيفة عن عملها شر من الشرور يجب ان يقاوم كما تقاوم الاوبئة والاخلاق الفاسدة

احس الانسان بالالم منذ تركت فيهِ الحياة ولكنهُ لم يدرك وظيفتهُ ومرتبتهُ من الحواس الاخرى وخفيت عليهِ حكمة الطبيعة في وجودهِ كما خفيت عليهِ اغلب نواميسها الدهور العديدة . فنظر اليهِ نظرهُ الى الامراض والاضرار لانهُ وجدهُ ملحوقاً بها دائماً . ولما رأى ان تهيبجهُ شديد اراد ان يتخلص منهُ وترك العمل للتخلص من مسبباتهِ لاستعصاء هذا عن ذاك . فبدأ يكتشف المخدرات والمكنات

اقصد بالمخدرات والمكنات كل ما يُفقد الشعور بالألم او يضعفهُ بدون ان يكون لكل ذلك تأثير ما في ازالة العلل او الداء المحجوب بهِ والذي هو سببهُ وموجدهُ . وهذه المخدرات على نوعين : مادية وهي التي تتعلق بخواص المادة من حيث تأثيرها العضوي كالكحول والافيون والمورفين والحشيش والكلوروفرم وغيرها مما هو معروف . وادبية وهي التي تستعين بتأثير الاوهام على الافهام وخضوع هذه لما تفضل العقول وتصور لها تصورات يخرج بها الانسان من هذا العالم الذي هو بعضهُ ولا يمكنهُ البتة ان ينزع نفسهُ منهُ وتعشى البصائر عن حقائق الاشياء فلا يراها الانسان كما هي لانهُ لا يشعر بها بحواسهِ . ولذا كثرت الخرافات والتصديق بما يتنافر مع العقل واشتد تأثير المخرفين حتى كاد لنا في عالم الاحلام والصحو لم يأتِ وقتهُ بعد ولست ادري فارقاً كبيراً بين هذا النوع الثاني من التخدير وبين النوع الاول لانهما كليهما يجردان الانسان عن شخصيتهِ ويصورانهِ طائراً مع ملائكة السماء او سابحاً مع اسماك البحار ويولدان فيهِ آمالاً بعيدة ويريانهِ احلاماً جميلة ينسى معها آلامهُ ولو الى حين

اكتشف الانسان هذه المخدرات وتعلق بها لتريحهُ من آلامهِ ولتعزيهُ في مشاعب الحياة وكان تمسكهُ بالادبية منها اشد من تمسكهِ بالمخدرات المادية لان تأثير هذه وقتي يزول بعد قليل فترجع اليهِ آلامهُ ولانهُ يشعر باضرارها بجسمهِ ويدرك بعد الصحو منها انهُ كان مغشوشاً فيما كان يرى . بخلاف المخدرات الادبية فانهُ يموت وهو لا يشعر باضرارها ويعتقد انهُ على بصيرة من امرهِ . وقد صارت غريزة فيهِ يرثها عن اجدادهِ ويورثها لاحفادهِ كما يرث ويورث اوصافهُ الجسمية والمعنوية

على ان هذه المخدرات مهما اراحت الانسان ومهما حببت اليهِ الحياة ومهما افادت في بعض الاحيان فانها اضرت بالاجتماع اضراراً بالغة لا تخفى على من ينظر نظرة مجردة الى احوالهِ ويتتبع اطوارهُ . وهل يغني الخيال عن الحقيقة ام هل يستوي الوهم والواقع ؟ بل لا اظنني مبالغاً اذا قلت انها زادت مشكلات الحياة كثرة بتراكمها قبل ان تحل وزادتها تعقيداً بتركها تتحول وتشتبك حتى لكأني ارى الوقت الذي تصبح فيهِ عاجزة عن العمل . وهذا

طبيعي لان الآلام اذا اشتدت تغلبت على المخدرات وابطلت فعلها كما ان القوى الخارجية اذا اشتدت على القوى التي تضم ذرات المادة تغلبت عليها وفككتها

ولعلَّ قائلاً يقول ماذا تريد بالانسان وما عساهُ ان يعمل وهذه الدنيا كلها شقاء وعناء لاقبل لهُ على الوقوف امامها ولا يد لهُ في مقاومتها ؟ وهنا استوقفهُ لاقول ان الدنيا مهما جهلنا حقيقتها وخفي عنا معنى الحياة فيها فانها ليست دار شقاء وعناء . وليس الألم فيها الاَّ وسيلة لحفظ البقاء . وليست شدتهُ الاَّ عقوبة الاهمال . وليس الشقاء والعناء الذي نكابدهُ فيها الاَّ نتيجة جهلنا وسوء تربيتنا ونتيجة سوء معاملتنا لانفسنا واجسادنا . وكل هذا نتيجة تحذيرنا لاعصابنا بالاوهام والاحلام المسلية المسيئة

ليس في ما اقول شيء من اوهام الشعراء بل هو امر واقع اذا طرأت على الانسان حالة مرضية أحس بالألم الذي يتبعها لينبههُ الى وجود خلل في جسمهِ . وللتخلص من ذلك الألم واسطتان فاما ان يعمل في محاربة المرض حتى يزول ويزول معهُ الألم واما ان يعمل لازالة الالم نفسهِ ولا واسطة لهذا الاَّ التخدير . والفرق بين الواسطتين هو انهُ في الحالة الاولى يزول المرض والالم معاً وفي الحالة الثانية يزول الالم ويبقى المرض يعمل في جسمهِ حتى يجهدهُ ويلاشي قواهُ

وهكذا امراض الاجتماع . يطرأ عليهِ خلل يشعر بهِ عن طريق الحس بالألم أقرب الناس مساساً بنقطة الخلل . فأما ان يتكاتفوا للقيام في وجههِ ويلاشوهُ فيزول معهُ الألم واما ان يخدروا انفسهم بآمال باطلة واعتقادات عاطلة لا تغني عن الحق شيئاً فيزول الألم ايضاً ولكن يبقى الخلل يعمل في خراب الاجتماع . وقد يقال بامكان العمل لزوال المرض والألم معاً في وقت واحد . ولكن ما قد يجوز في الامراض الجسمية لا يجوز في الامراض الاجتماعية لان فن تشخيص امراض الاجتماع لم يترقَّ بعد كما ترقى فن تشخيص امراض الابدان . ولان اعراض الاجتماع ليست ظاهرة كامراض الجسم فيسهل تشخيصها . ولان تقسيم القوى في هذه الحالة مضيع لها . واخيراً لان الواقع يرينا ان الانسان لا يقوم لمقاومة المرض الاَّ اذا اشتد عليهِ الألم حتى اذا ما زال الألم قليلاً نام على المرض واغمض عينيهِ على القذى

قلت ان الاحياء تشترك في الشعور بالالم ولكنها تختلف في قوة ذلك الشعور فهو ضعيف في الاحياء الدنيا حتى ليقرب من العدم ويقوى كلما صعدنا بهِ في عالم الاحياء حتى تصل الى الانسان وهو ارقاها فنجدهُ بلغ الغاية فيهِ . وهو في الانسان نفسهِ يختلف باختلاف درجة رقيهِ فالانسان الراقي أحدّ شعوراً بالالم من الانسان المنحط . وهذا معروف لا حاجة الى

الاطالة فيه . والالم ضروري للحياة لأن الطبيعة لا ترقي من وظائف الانسان بسبب ترقيه الا ما هو ضروري لحفظ حياته . وكأننا بعملنا في افساد تلك الوظيفة نعمل سعي ارجاع الانسان مسافات طويلة اجتازتها الطبيعة به حتى بلغ من الارتقاء ما بلغ . وفي هذا من سوء التصرف وعدم التبصر ما يحملنا على النظر فيه

وهنا اجدني مضطرًّا الى ذكر كلمة عن الالتهاب . فهو ليس بمرض اجتماعي كما يظن البعض ولكنهُ دليل مرض في الاجتماع ظهرت اعراضهُ في المتحرين وهم الذين لم يستطيعوا ان يتحملوا آلام ادواء الحياة لضعف طبيعي في اخلاقهم وخلل في اعصابهم . فلا ضرر على الاجتماع من فقدهم لانهم لا يصلحون لهُ

والنتيجة انهُ اذا اردنا اصلاح الاجتماع وتخفيف مصائب الحياة واتعابها فلنترك حاسة الألم تعمل بأن نترك الانسان على حالتهِ الطبيعية فلا نخدر اعصابهُ بما لا يغذيه العقل ولنساعد المتألمين على ازالة ما يتألمون منهُ فهو خير وابقى

مصر القاهرة دلاور سليمان

اللغة العربية والطب

(تابع ما قبلهُ)

(القَطعة والقُطْعة) جاء في لسان العرب «القَطْعة والقُطْعة بالضم مثل الصلعة والصلعة موضع القطع من اليد وقيل بقية اليد المقطوعة وضربهُ بقطعتهِ وفي الحديث ان سارقاً سرق فقُطع فكان يسرق بقطعتهِ بفتحتين في الموضع المقطوع من اليد وقد تضم القاف وتسكن الطاء فيقال بقُطْعتهِ» وهو في الانكليزية (Stump) اي العص او بقية العضو المقطوع . ومثلها الجذمة

(القلع) في لسان العرب «واقلعت عنهُ الحمى كذلك والقلع حين اقلاعها يقال تركت فلاناً في قَلْع وقَلْع من حماهُ يسكن ويحرك اي في اقلاع من حماهُ . الاصمعي الوقت الذي تقلع فيه الحمى فاذا اقلعت فذلك الحين هو القلع» وهو في الانكليزية (Defervescence) اي هبوط الحرارة . ومثلها الافراق والاقلاع

(الخمود) في ص ٧ من الجزء الخامس من المخصص «خمدت الحمى سكن فوارها» وفي لسان العرب «خمدت الحمى سكن فورانها» ويمكن الاصطلاح على هذه الكلمة لتعريب